الباب الرابع

التحليل لآراء بنت الشاطئ فى تفسير آية الإرادة

الفصل الأول: التحليل لآراء بنت الشاطئ فى تفسير آية الإرادة

اعتقد الجبرية بإرادة الله المطلقة فالإنسان مجبور فى إرادته. بخلاف ذلك، اعتقد القدرية بإرادة الإنسان الحرة فالإنسان مخير فى إرادته. و ليؤكد هذين اعتقدين يأخذ كل منهم بعض الآية القرآنية التى تصدق عقائدهم و يترك الآية التى تخالفها. فآية الإرادة عند الجبرية هي الآيات التى تدل على إرادة الله المطلقة و بعكس ذلك، فآية الإرادة عند القدرية هي الآيات التى تدل على إرادة الإنسان الحرة. ثم جاء منهم أنفار يفسرون و يؤوّلون تلك الآيات حسب اعتقادهم، فبنى مفسرو الأشاعرة فى آية الإرادة تفسيرهم على نظرية الكسب و أما مفسرو المعتزلة بنى تفسيرهم فيها على نظرية العدل، أى فى عبارة بنت الشاطئ بأن هذين مذهبين متناقضين يمكن اقتفاء و أثرهما فى نزاع بين مفهومين لطبيعة الله: القوة المطلقة و العادل.[1]

[1] عائشة عبد الرحمن، ***مقال فى الإنسان دراسة قرآنية*** (القاهرة: دار المعارف، الطبعة الثانية، 1993)، ص 105.

و فى تفسير آية الإرادة، رأى الجبرية بأن الإنسان و عمله مخلوق لله، و جميع ما يصدر عن الإنسان بمشيئة الله فدخول الجنة و النار فبمشيته، و الإيمان و الكفر أى الخير و الشر كله مخلوق لله، و جد الرسل فى دخول الإنسان فى الإيمان لا ينفع، و ما أراد الله إيمان جميع الناس بل بعضهم فحسب، و إرادة الإنسان إعطاء من الله (كسب).

و أما القدرية رأى بأن الاختيار من عند الإنسان، و أراد الله الإيمان من جميع الناس ولكن القدرة للاختيار جعل بعض الناس اختار الكفر، و ليس لله إرادة الظلم على الإنسان، و أثاب الله المحسنين و عاقب المجرمين فدخول الجنة و النار تحت اختيار الإنسان، و أراد الله الطاعات من الإنسان على وجه اختيار، و الاهتداء بالإيمان و الضلال بالكفر من اختيار العبد، و لا يصدر من الله القبائح من الكفر و الشر و غير ذلك.

ثم جاءت بعد ذلك بنت الشاطئ بآراء ثلاثة: إرادة الله أمر و حكم نافذ، و أن الله لا يظلم فعلا أو يلحق بأحد ضرر دون استحقاق، أى أن الله قادر على العدل و الظلم و لكنه لا يغوى و لا يظلم و لا يرضى لعباده الكفر و لا يسوق إليه، و أن إرادة الإنسان كسبية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة و تفكير، و بعدها تأتى إرادة الله وفق ما أراد.

من رأيها الأول –إرادة الله أمر و حكم نافذ– يعلم أنها تثبت قدرة الله و إرادته المطلقة، فلا خالق غيره، و أنه على كل شيئ قدير، لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد

من أفراد الممكنات. فتصير هذا الرأي أساسا لرأيها الثانى يعنى أن الله قادر على كلاهما من العدل و الظلم لأن قدرة و إرادته المطلقة، و لكنه لا يغوى و لا يظلم و لا يرضى لعباده الكفر و لا يسوق إليه.

فقولها بأن إرادة الله أمر و حكم نافذ يدل على إثبات قدرة الله و إرادته، و أنه لا خالق غيره، و أنه على كل شيئ قدير، لا يستثنى من هذا العموم فرد واحد من أفراد الممكنات. و هذا الرأي موافق برأي الجبرية، داحل فيه كون الإنسان و عمله مخلوق لله، لأن إرادة الله مطلقة. فتقول بأن الله قادر على العدل و الظلم . و هذا الرأي مخالف بما رأى القدرية الذى ينفى إرادة الله للظلم فلا يصدر من الله القبائح.

ولكنها، مهما كانت ترى بأن الله قادر على العدل و الظلم، ترى كذلك بأن الله لا يغوى و لا يظلم و لا يرضى لعباده الكفر و لا يسوق إليه. فهذا الرأي، بجانب يرد على رأي القدرية الذى ينفى إرادة الله للظلم، يرد كذلك رأي الجبرية حيث يرى بأن جميع ما يصدر عن الإنسان بمشيئة الله، و أيضا يرد على زعمهم بأن الإيمان و الكفر أى الخير و الشر كله مخلوق لله، لأن هذا الزعم يدل على أن الله يرضى الكفر أو الشر، و الله عندها لا يرضى لعباده الكفر و لا يسوق إليه.

و حين ترى بأن إرادة الإنسان كسبية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة و تفكير، و بعدها تأتى إرادة الله وفق ما أراد، يعلم بأن إرادة الإنسان عندها هي شيئ كسبي، شيئ آت و إعطاء من الله. ولكن، لأن هذا الشيء مصحوبة بعزم و مسبوق برغبة، تكون الإرادة التى أعطاها الله للإنسان حرية فالإنسان غير مجبور فى أفعاله. و هذا الرأي ليس مخالفا برأيها الأول بأن إرادة الله مطلقة لأن حرية إرادة الإنسان لا تنفى إرادته المطلقة أى بعارة أخرى أن إرادة الإنسان الحرة داخل تحت إرادة الله المطلقة.

بعد هذا الرأي، زادت بأن بعد إرادة الإنسان الحرة تأتى إرادة الله وفق ما أراد. و فى قوله تعالى:"وَإِذَا **أَرَادَ** اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (الرعد: 11) الذى يدل على إرادة الله بقوم سوءا حكما لا مرد له، تراجع هذه الآية إلى قوله تعالى فى نفس الآية: "إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ"، فتكون إرادة الله المطلقة تأتى بعد إردة الإنسان لأن الله لم يك مغيرا على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. لذلك تقول بأن الله لا يظلم فعلا أو يلحق بأحد ضرر دون استحقاق.

و أما قولها بأن إرادة الإنسان تأتى بعدها إرادة الله وفق ما أراد، هذا القول فى الظاهر يشبه قول المتصوفون الذين قالوا: "إن لله عبادا إذا أرادوا أراد"، مؤسسا على حديث قدسي: "أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني وإن تقرب مني شبرا تقربت

منه ذراعا وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" و كذلك: "أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وإن شرا فشر". ولكن القول مخالف فى القصد لأن الجملة عند المتصوفة يعنى " إن لله عبادا إذا أرادوا أراد" تستعمل لتبيين درجة حب الله لبعض عبادها المقربين منه و لبعض الأخيار من البشر.

و أما بنت الشاطئ تقصد برأيها إثبات وجود حرية إرادة الإنسان كلها لا البعض. و هذا القصد بالحقيقة موافق بالحديث السابق: "أنا عند ظن عبدي بي إن خيرا فخير وإن شرا فشر". بهذا الرأي و القصد، تظهر رأيها الأهم فى هذه القضية —حرية إرادة الإنسان– يعنى أنها ترى الإنسان مخير فى إرادته و أفعاله ولكن الحرية ليست كما تراه القدرية التى تنفى إرادة الله للظلم.

بعد معرفة تفسير الجبرية و القدرية لآية الإرادة و آراءهم فيه، و بعد النظر إلى تفسير بنت الشاطئ لآية الإرادة و آراءها فيه، رأى الباحث بأن بنت الشاطئ أرادت أن تقول بأن كل فريق – الجبرية و القدرية– معه حق و باطل. فمذهب الجبرية قيه من الحق أن إرادة الله مطلقة و أن الله خالق كل شيء، و لا يخرج شيئ فى الوجود عن قدرته و إرادته. و عندهم من الباطل ما زعموه بأن العبد ليس له قدرة، و لا إرادة و لا اختيار. و

أما القدرية فعندهم من الحق أن العبد له قدرة و إرادة و اختيار، و عندهم من الباطل ما زعموه من أن الله ليس قادرا على إرادتهم و لا خالقا لها.

و فى نظرية الباحث، سعت بنت الشاطئ فى الرد على عدم تفريق الجبرية و القدرية بين الإرادة و الرضا. رأى الجبرية بأن جميع ما يصدر عن الإنسان بمشيئة الله فدخول الجنة و النار فبمشيته، و الإيمان و الكفر أى الخير و الشر كله مخلوق لله. فإرادة الله لإيمان المؤمن و كفر الكافر تدل على أن الله يرضى كلاهما –الإيمان و الكفر– لعباده. وهؤلاء الجبرية قالو: "كل ما فى الوجود من كفر و فسوق و عصيان فإن الله راض به محب له، كما هو مريد له".[2] و أما القدرية يرى بأن ليس لله إرادة الظلم على الإنسان بمعنى على أن الله لا يرضى لعباده الكفر. قال قاضى عبد الجبار: "أن الله لا يريد المعاصى، لأن الرضا يرجع فى المعنى إلى الإرادة".[3]

بعد الملاحظة إلى آراءها الثلاثة، رأى الباحث على أن إرادة الله عند بنت الشاطئ نوعان:

1–الإرادة الكونية، و هذه الإرادة مستلزمة للوقوع، وهي بمعنى الإرادة العامة الشاملة لكل ما يقع فى هذا الكون من خير و شر.

[2] ابن تيمية، ***مجموع الفتاوى*** (الرياض: دار الفتاوى، الطبعة الثالثة، 2005)، الجزء الثامن، ص 205.
[3] عماد الدين أبى الحسن عبد الجبار بن أحمد، ***تنزيه القرآن عن المطاعين*** (بيروت: دار النهضة الحديثة، مجهول السنة)، ص 361.

2-الإرادة الدينية الشرعية، و هذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد، بل تستلزم الرضا.

و الرضا مغاير للإرادة لأن الإرادة عادة تكون من المريد و نابعة منه لكن الرضا متعلق بفعل الغير. و ليست الإرادة و الأمر شيء واحد، لأن الإرادة قدرة من شأنها أن تخصص أحد الممكنين، أما الأمر فإنه طلب الفعل.[4] لذلك قال أهل السنة و الجماعة: "أنه –الله– يريد الكفر من الكافر و يشاؤه و لا يرضاه فيشاؤه كونا و يرضاه دينا".[5]

و قالت في تفسير لفظ الأمانة في قوله تعالى: "إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا (الأحزاب: 72)، أن الأمانة هي الابتلاء بتبعة التكليف و حرية الإرادة و مسؤلبية الاختيار؛ و الإيمان من الأمانة. بهذا التفسير، يعلم على أن الإيمان داخل في النوع الثاني من الإرادة يعني الإرادة الدينية الشرعية التي لا تستلزم وقوع المراد. و إذا كان الإيمان نوع من أمانة الإنسان و كذلك إذا كان الإيمان داخل تحت الإرادة الدينية الشرعية، فينبغي للإنسان الحرية في الإرادة.

[4] فيصل بدير عون، ***علم الكلام و مدارسه*** (القاهرة: دار الثقافة، مجهول السنة)، ص 318-320.
[5] فهد بن عبد الرحمن سليمان الرومي، ***منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير*** (الرياض: مجهول الناشر، الطبعة الثانية، 1983)، ص 533.

قال الله تعالى: "أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (الحج: 18)، فهو سبحانه أخبر أن الكون بأكمله يسجد له و يعبده ولكنه حينما ذكر الناس يتركها مطلقة ولكنه قال: " وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ". قيدل ذلك على أن الكون بأكمله مسير أما الإنسان فهو مخير فيما يتعلق بالعبادة و غيرهما من نواحى الخير و الشر.

الفصل الثاني: ميل رأي بنت الشاطئ فى تفسير آية الإرادة

من التحليل لآراء بنت الشاطئ فى تفسير آية الإرادة السابق، يستطيع الباحث أن يأخذ الاستنباط منه عن ميلها فى تفسير آية الإرادة،، هل يميل رأيها إلى الجبرية أو القدرية. و قد سبق التحليل بأنها توافق الجبرية فى حين و فى حين آخر تخالفها. و كذلك توافق القدرية فى حين و فى حين آخر تخالفها. فالوقوف فى رأيها بأن إرادة الله أمر و حكم نافذ يحمل إلى استنباط على أنها تميل إلى الجبرية. بجانب آخر، الوقوف فى رأيها بأن الإنسان حر فى الإرادة يحمل إلى استنباط على أنها تميل إلى القدرية. و الوقوف إلى رأيها بأن إرادة

الإنسان كسببية مصحوبة بعزم مسبوق برغبة و تفكير و بعدها تأتى إرادة الله وفق ما أراد، يحمل إلى استنباط على أنها تميل إلى رأي المتصوفة الذيين قالوا "إن لله عبادا إذا أرادوا أراد".

وينبغى أن يعلم أن بنت الشاطئ أحد من تلاميذ محمد عبده،[6] و فى القضاء و القدر يقول محمد عبده:" فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شيء على النحوى يعلمه، و بأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة إليه، و أن يعمل بما أمره به و يجتنب ما نهاه عنه و ذلك باستعمال تلك الحرية التى يجدها من نفسه".[7] ولكن، رأى الباحث أن هذا القول لم يكن دالا على تأثير رأي محمد عبده على رأيها لأن هذا القول لا يزال لم يفرق بين الإرادة و الرضا، وقد ردت بنت الشاطئ على عدم التفريق بين الإرادة و الرضا.

فأحسن الطريق للوصول إلى تعيين ميل رأيها فى تفسير آية الإرادة هو النظر إلى منهجها فى تفسير آية الإرادة. و قد اعترفت أنها اتبعت منهج أمين الخولى فنهجت منهجا

[6] Rif'at Syauqi Nawawi, *Rasionalitas Tafsir Muhammad Abduh: Kajian Masalah Akidah dan Ibadat* (Jakarta: Paramadina, cet. Ke-1, 2002), hal. 97.

[7] عبد الله محمود شاحة، ***منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم*** (القاهرو: نشر الرسائل الجامعية، 1963)، ص 146.

بيانيا و تعتمد على قاعدة "القرآن يفسر بعضه بعضا"، و قد سبق البحث و الأمثلة من تفسيرها.

و فى نظرية الباحث، تفسيرها لآية الإرادة السابقة أنه نوع من التفسير الموضوعي أوّلاً، و التفسير اللغوي ثانيا، و تفسير القرآن بالقرآن ثالثا، والنقطة البارزة في هذا النمط هو استقراء اللفظ القرآني في كل مواضع وروده في الكتاب. وبعبارة أُخرى :يهتم المفسّر في فهم لغة القرآن بالتتبع في جميع صيغ هذا اللفظ الواردة في القرآن الكريم ثم يخرج من ضمّ بعض إلى بعض بحقيقة المعنى اللغوي الأصيل. لكنّه لايعتني بهذا الوضوح، بل يرجع إلى نفس القرآن ثم يطبّق عليه سائر الضوابط من تدبّر سياق الآية وسياق السورة، وسياق الآية العام في القرآن كله.

قال الإمام مالك: "لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر القرآن إلا جعلته نكالا". و قال الشاطبي: "من أراد تفهم القرآن، فمن جهة لسان العرب يفهم، و لا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة.[8] و لقد وردت الآية فى القرآن: " إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (يوسف: 2).

[8] خالد عبد الرحمن العك، ***أصول التفسير و قواعده*** (بيروت: دار النفائس، الطبعة الثانية، 1986)، ص 137.

لذلك مهما كان رأيها فى تفسير آية الإرادة فى حين يوافق الجبرية و فى حين يوافق القدرية و فى حين آخر يوافق قول المتصوفة، رأى الباحث على أن رأيها لا يميل إلى أي رأي سابق من الجبرية أو القدرية أو المتصوفة. و إذا يوجد الاتفاق بين رأيها برأي سابق من الجبرية أو القدرية أو المتصوفة، لا يستطيع أن يقال على أنها تميل إلى واحد من تلك الأصناف لأن اتفاقها لا يجعلها تقف فى ردها على رأيهم إذا كان ذلك الرأي لا توافق برأيها المبني على منهجها فى التفسير. بهذا الحال تصير آراء بنت الشاطئ فى قضية حرية الإنسان رأيا مستقلا لا تميل إلى أي صنف كان.

قال جعفر السبحانى عن تفسيرها: "أنّه نمط بديع بين التفاسير، إذ لايماثل شيئاً مما أُلّف في القرون الماضية من زمن الطبري إلى العصر الأخير الذي عرف فيه تفسير الإمام عبده وتفسير المراغي، فهذا النمط لايشابه التفاسير السابقة".[9]

[9] جعفر السبحانى، ***المناهج التفسيرية*** (قم: مؤسسة الإمام الصادق، الطبعة الثانية، 1422 هـ)، ص 146.